الكناية
باعتبار الوسائط والسياق
ودورها في إفادة المعنى في
(أيام العرب في الجاهلية)
دراسة في التركيب الدلالي وأسلوب الصياغة

بحث مقدم
إلى المؤتمر العلمي الأول
تجديد العلوم العربية والإسلامية بين الأصالة والمعاصرة
المنعقدة بكلية الدراسات الإسلامية والعربية للبنين بدسوق
جامعة الأزهر ٢٠/٣/٢٠٢١
(الجزء الثاني)

إعـــــداد
الدكتـــــور
عامر بن سمار بن مفلح الرشيدي
أستاذ البلاغة والنقد المساعد

تقديم

الحمد لله – تبارك وتعالى – الذي لم يستفتح بأفضل من اسمه كلام، ولم يستنجح بأحسن من صنعه مرام ،الحمد لله ابتداءً وإعادة حمداً لا انقطاع لراتبه ولا إقلاع لسحائبه، والصلاة والسلام على خير من نطق بالضاد تصريحاً وتلميحا، تعريضاً وتلويحاً رمزاً وإشارة بيد أنه من قريش ،وعلى آله وأصحابه أجمعين ... وبعد

فإن المعنى الذي تؤديه العبارة أو تدل عليه الجملة في تراثنا البلاغي والأدبي عموما له مستويات في الكشف عنه وإبراز ما له من أثر يقصده المتكلم ويفيده المتلقي ، فهو إما أن يكون بالتصريح والقصد المباشر إلى ما يعنيه المتكلم، أو بترك التصريح تحولاً إلى أسلوب آخر له من الإفادة والاتساع والتفصيل ما ليس للتصريح أو القصد الذي يفرز دلالة تقريرة مجردة من خلال الدلالة التركيبية للكلام أو الصورة النمطية أو الدلالة المجردة (فلقد حفل تراثنا البلاغي بالموازنة والتمييز بين صورتين من صور الدلالة على الغرض أو المعنى الواحد، إحداهما : صورة نمطية يظل المعنى معها غفلاً ساذجاً متداولاً بين الناس، والثانية : صورة فنية يتشكل المعنى بها في شكل تعبيري متفرد، ينتقل به من حيز السذاجة والتداول إلى حيز الفنية والإبداع)[1]

فالصورة النمطية (الدلالة المجردة) تقوم على المحافظة على وضعية الدلالة للألفاظ في عرف الاستعمال فلا تحتمل زيادة ولا نقصاً ، كما تقف الصورة النمطية بالألفاظ عند مستوى الصحة النحوية بمراعاة أحكام النحو فيها من الإعراب والترتيب للجمل .

---

(١) المعنى في البلاغة العربية – حسن طبل صـ٨١ ط دار الفكر العربي– القاهرة ١٩٩٨م، ويعني المؤلف بالصورة في النص السابق طريقة التعبير عن المعنى تلك التي تكون تقريرية حرفية تارة، أو بلاغية فنية تارة أخرى، واصطلح على تسميتها في الحالة الأولى بالصورة النمطية وفي الحالة الثانية بالصورة الفنية .

أما الصورة الفنية (المعنى) فتقوم على علاقة الصورة ، وهي مجموعة الإشعاعات والإيحاءات الدلالية في صياغاتها الفية بأشكال خاصة بالمعنى المراد إيصاله للمتلقي ، كما تقوم على معايير فضفاضة للصورة الفنية تستفاد من اللفظ أو النظم أو الرمز أو الإشارة ...الخ

ولما كان الأمر كذلك فقد آثرت الكتابة في هذه الأوراق عن الكناية وبعض صورها وأقسامها وأدواتها في أيام العرب وأخص منها (الأيام الجاهلية) وذلك لما وجدته فيها (أيام العرب في الجاهلية) من صور الكناية يصل إلى حد الإسراف أو الظاهرة –إن صح التعبير – فمما لا شك فيه أن عدول المتكلم عن الأسلوب الصريح إلى التلميح أو التلويح أو الرمز أو الإشارة دفعه إلى تحقيق مراده لداع في نفسه جعله لا يصرح ، أو لمأزق وقع فيه فلم تسعفه الصراحة ولم تعنه الحقيقة فلجأ إلى الإيحاء أو التعريض ... الخ .

وهذا ما سوف أبينه – بحول الله – خلال صفحات البحث التالية

وقد جاءت هذه الدراسة في مقدمة وتمهيد وفصلين وخاتمة

فالمقدمة : جاء فيها التمييز بين صور الدلالة على الغرض وتفصيل أجزاء الدراسة .

أما التمهيد فجاء فيه التعريف بالكناية وبعض صورها وبأيام العرب ، ومعناها والمقصود بها .

أما الفصل الأول فعنوانه : فن الكناية وصوره باعتبار الوسائط في روايات (أيام العرب الجاهلية)

ثم كان الفصل الثاني بعنوان : الصياغة الفنية في كنايات أيام العرب الجاهلية .

ثم الخاتمة : وفيها بعض النتائج والاستخلاصات .

وأيام العرب قسمان : جاهلي وإسلامي ، وقد اقتصرت الدراسة على القسم الأول منها، كما سيأتي سبب ذلك- إن شاء الله – في التمهيد .

والله الموفق والمستعان

د. عامر بن سمار الرشيدي

تمهـــيد

الكناية من أهم مباحث علم البيان خاصة والبلاغة عامة، وذلك لاتصالها اتصالاً وثيقاً بخطابات العرب وكلامهم (وتكون بترك التصريح بالشيء إلى مساويه في اللزوم لينتقل منه إلى اللزوم)[١] أو بمعنى آخر : هي لفظ أريد به ملزوم معناه الوضعي [٢].

والكناية صورة من صور الانحراف الدلالي (فالدلالة في أسلوب الكناية كما صورها البلاغيون ليست دلالة صريحة مباشرة ، بل إننا مع هذا الأسلوب نكون إزاء خطوتين متتاليتين من الدلالة ، أولاهما : الدلالة الوضعية لألفاظ الأسلوب على معناها الحرفي ، والثانية : دلالة هذا المعنى الحرفي على المعنى أو الغرض المراد، فالكناية كما يعرفها عبد القاهر :أن يريد المتكلم إثبات معنى من المعاني فلا يذكره باللفظ الموضوع له في اللغة ، ولكن يجئ إلى معنى هو تاليه وردفه في الوجود، فيومئ به إليه ويجعله دليلاً عليه[٣]...)[٤].

وهي (الكناية) عنده(عبدالقاهر) أبلغ من التصريح لما تنطوي عليه من الإفادة والاتساع، يقول يحيى بن حمزة صاحب الطراز: (اعلم أن الشيخ عبد القاهر الجرجاني

---

(١)ينظر – التبيان في المعاني والبيان – شرف الدين الطيبي صـ ٣٢٥ تحقيق عبد الحميد هنداوي د.ت والمصباح في المعاني والبيان والبديع- ابن الناظم صـ١٨٥ تحقيق عبد الحميد هنداوي ط دار الكتب العلمية – بيروت ٢٠٠١م . .

(٢) الإشارات والتنبيهات في علم البلاغة – محمد بن علي الجرجاني صـ٢٣٨ تحقيق عبد القادر حسين ط دار نهضة مصر- القاهرة ١٩٨١م .

(٣) دلائل الإعجاز- عبد القاهر الجرجانيصـ٥٢ تحقيق محمود محمد شاكر ط الخانجي ط٢ القاهرة ١٩٨٩ .

(٤) المعنى في البلاغة العربية- حسن طبل صـ١٤٧ .

وغيره من أفاضل البيان مطبقون على أن الكناية أبلغ من الإفصاح بذلك المعنى المكنى به عنه، وأعظم مبالغة في ثبوته ...)[١]

والكناية صور وأقسام باعتبارات مختلفة، فهي باعتبار الإجراء ثلاثة فروع (صفة وموصوف ونسبة) ، وباعتبار الأثر : (ما يحسن استعماله وما يقبح استعماله) ، وباعتبار الوسائط والسياق أربعة فروع (التعريض والتلويح والرمز والإشارة)[٢] وهذا القسم الأخير هو المعني بهذه الدراسة ، إذ الكناية بهذه الصور (التعريض والتلويح والرمز والإشارة) تتوافق مع استعمالها وآثار مراداتها مع الأخذ في الاعتبار أن هذه التفريعات والتداخلات يمكن رد بعضها إلى بعض ودخولها تحت بعض، إذ الخط الفاصل بينها لا يكاد يبين .

فالتعريض والتلويح والرمز والإشارة (قد يقترب بعضها من بعض حتى لا نستطيع أن نفرق بينها تفريقاً دقيقاً، إلا أنه يبقى للبلاغي القديم فضله العميم في استنباط الشاهد وتأصيل القاعدة بما يسمح بالانطلاق من خلال جهده هذا إلى تطواف داخل النص يكون أكثر رحابة وأدق تقسيماً بما يتوافق مع طبيعة الدرس البلاغي الذي يقوم في أساسه على الذوق...)[٣]

أما أيام العرب فتعني الوقائع والحروب التي كانت تدور بين قبائل العرب أنفسهم، أو بين قبائل العرب وغيرهم من الأمم والأجناس الأخرى كالفرس وغيرهم، ثم اتسع

---

(١)الطراز المتضمن لأسرار البلاغة وعلوم وحقائق الإعجاز- يحيى بن حمزة العلوي صـ١٩٩ مراجعة وتدقيق محمد عبد السلام شاهين ط دار الكتب العلمية بيروت ط ١عام ١٩٩٥م .

(٢) علم البيان – مختار عطية صـ ١٣١ ط دار الوفاء الإسكندرية ٢٠٠٤م .

(٣) السابق صـ١٤٤

مدلول الكلمة (أيام العرب) لتشمل الفتوح والمغازي في العصر الإسلامي ، فصار كتَّاب السِّير يقولون يوم القادسية، يوم اليرموك....إلخ قياساً على الأيام الجاهلية .

فمما دار من وقائع وأيام بين قبائل العرب أنفسهم: داحس والغبراء، البسوس، النفراوات، الكديد، ويوم بعاث، كذلك ما حدث بين الأوس والخزرج .

ومما وقع بين العرب وغيرهم كالفرس: يوم الصفقة، ويوم ذي قار الذي انتصرت فيه العرب على كسرى ومن والاه من قبائل العرب الأخرى .

أما ما جاء في العصر الإسلامي؛ فقد درج أصحاب السِّير -كما سبق- وأصحاب المغازي يقولون يوم بدر، ويوم أُحد، ويوم الأحزاب ، ولا غرو فقد قال الله -تعالى-: (وَيَوْمَ حُنَيْنٍ...)[١]، فالأيام إذن تعني الحروب، كما تعني الشدائد والمحن ، يقول الزمخشري في تفسير قوله -تعالى- :(وَذَكِّرْهُم بِأَيَّامِ اللَّهِ ...)[٢] أي أنذرهم بوقائعه التي وقعت على الأمم قبلهم قوم نوح وعاد وثمود، ومنه أيام العرب لحروبها وملاحمها كيوم ذي قار ويوم الفجار وغيرها[٣] .

والأيام تعني أيضا: النصوص المكتوبة التي تروي تلك الحروب، يقول ابن منظور في (لسان العرب) مادة "يوم" نقلا عن ابن السكِّيت بعد أن أقر معنى الحروب والوقائع للفظ الأيام:(وإنما خصوا الأيام دون الليالي في الوقائع لأن حروبهم كانت نهاراً)[٤].

---

(١) سورة التوبة آية ٢٥ .

(٢) سورة إبراهيم آية ٥ .

(٣) تفسير الكشاف- أبو القاسم محمود بن عمر الزمخشري ٢/ ٣٦١ ط مصطفى البابي الحلبي – القاهرة ١٩٦٦.

(٤) لسان العرب – جمال الدين بن منظور الإفريقي ٦/ ١٥٦٣ ط دار المعارف .

وأدب أيام العرب المعنِي به أيضا : مجموع تلك النصوص التي دونت فيها تلك الوقائع والحروب، والتي أُخذت مشافهة من الرواة قديماً، أو التي سُمعت ودونت في حلقات أشهر المدارس قديماً (مدرستي البصرة والكوفة)، ثم جمعت أخيراً في موسوعات وكتب كبيرة من أمثال : الأغاني لأبي الفرج، العقد الفريد لابن عبد ربه، أو ما جاء عند أبي عبيدة في نقائض جرير والفرزدق، وعند الطبري وابن الأثير، وكذا ما جاء في صبح الأعشى للقلقشندي، أو ما جاء عند النويري في نهاية الأرب، أو عند الميداني في مجمع الأمثال[1]....الخ .

وأخيراً انتقى محمد جاد المولى، وعلي محمد البجاوي، ومحمد أبو الفضل إبراهيم من هذه المصادر مجتمعة مادة لكتابين مهمين، نُشر الأول تحت عنوان (أيام العرب في الجاهلية) ونشر الثاني تحت عنوان (أيام العرب في الإسلام) .

وهذه الدراسة سوف تعتمد على الكتاب الأول فقط (أيام العرب في الجاهلية)، فهو كفيل بأن يغني الدراسة ويجعل فيها شيئاً من التفصيل، وألا تتحول الدراسة إلى نوع من الإجمال أو الطي السريع للأحداث، أو رؤوس الأقلام –كما يقولون– كتلك المذكرات التي تصنع للطلاب .

كما أن دوافع الحروب وطرق القتال، وأنواع العلاقات والعصبيات في الكتاب الأول مختلفة اختلافاً كبيراً عنها في الكتاب الثاني، إذ لم تزل الدوافع في الأول فطرية عفوية بدائية لم تطبع بعد بالطابع الإيماني ولا بالنزعة التوحيدية، أو التفنن في طرق القتال وعصبياته التي جاء بها الإسلام في الثاني .

---

(١) باعتبار أن كثيراً من أمثال العرب السائرة كانت وليدة تلك الوقائع والأيام .

وأدب أيام العرب هو أول نموذج للنثر القصصي العربي بمعناه (الدرامي) : أي تشابك الأحداث وتسلسلها من المقدمة وصولاً إلى العقدة، وانتهاءً بالانفراجة، مع ولوج لتحليل بعض نفسيات أبطال الوقائع أحياناً، وإيقاف القارئ وإشعاره بالعبرة الأخلاقية الإنسانية التي يحسن له أن يستخلصها من تصرفاتهم .

فأيام العرب من هذه الناحية قصص حربي جدير بأن يدرس من جهتي الشكل والمضمون، في معانيه السامية، وأبعاده الخلقية العميقة، وفي خياله الطريف، وفي لغته الجزلة، وأساليبه التعبيرية المتنوعة، لا سيما في سره للحوادث وترتيبها، وإدراجها على ما يقتضي التشويق والإثارة القصصية .

كما أن (أيام العرب) مصدر مهم من مصادر الشعر، إذ يمتزج النثر في نصوصها بالشعر الذي قيل في الوقائع فخراً، أو نصراً، أو توعداً، أو تفجعاً، أو وصفاً للقتال ، فغدت (الأيام) من هذه الناحية من أهم مصادر الشعر الجاهلي .

كما لا تخلو دراسة (الأيام) من فوائد اجتماعية تاريخية من ناحية تصوير التنافس القبلي على أسباب المعيشة، أو الافتخار بخلو النسب من الهجنة، أو المعتقد الديني، أو العادات في السلم والحرب، أو القرابات والأخلاق ...مما يعطي صورة جلية عن المجتمع الجاهلي على ما تقتضيه طبيعة البداوة .

الفصل الأول

فن الكناية وصوره باعتبار الوسائط والسياق

في (أيام العرب في الجاهلية)

(لا شك أن العدول عن الحقيقة إلى الأسلوب الكنائي يتضمن سعياً إلى مجموعة من الأغراض التي تسمو إليها الكناية وترنو إلى تحقيقها في النص)[١]

يقول ابن الناظم : (ولا يترك التصريح بالشيئ إلى الكناية عنه في بليغ الكلام إلا لتوخي نكتة كالإيضاح أو بيان حال الموصوف أو مقدار حاله أو القصد إلى المدح أو الذم أو الاختصار أو الستر أو الصيانة أو التعمية والإلغاز أو التعبير عن الصعب بالسهل أو عن الفاحش بالظاهر أو عن المعنى القبيح باللفظ الحسن)[٢].

وقد سبق أن الكناية تنقسم عدة أقسام باعتبارات مختلفة، فتنقسم باعتبار الإجراء – أي ما ترمي إليه – ثلاثة أقسام (كناية عن صفة – كناية عن موصوف – كناية عن نسبة)، وهي باعتبار الأثر – أي ما ينتج عنها – قسمان (ما يحسن استعماله – وما يقبح استعماله وهو ما يعد عيبا في التأليف) ، وهي باعتبار الوسائط أقسام هي : التعريض والتلويح والرمز والإشارة ، وقد وردت أغلب هذه الصور – إن لم تكن جميعها – في أيام العرب ، إلا أن هذه الدراسة تسلط الضوء على صور الكناية بالوسائط والسياق دون غيرها من الصور .

❖ فالتعريض: ويقرنه كثير من البلاغيين بالكناية إلا أن الأصوب أن يكون واسطة إليها (وقد يجتمع التعريض والكناية في التعبير الواحد وتسمى الكناية

---

(١) علم البيان – مختار عطية صـ١٤٥

(٢) المصباح في المعاني والبيان والبديع صـ١٨٥ .

عندئذ بالكناية التعريضية أو العرضية ...)[١] ومنه قوله تعالى على لسان سيدنا إبراهيم (قَالَ بَلْ فَعَلَهُ كَبِيرُهُمْ هَذَا فَاسْأَلُوهُمْ إِنْ كَانُوا يَنْطِقُونَ)[٢] معرضاً بإقامة الحجة عليهم على سبيل الاستهزاء بهم ، ومنه أيضا: (ما روي أن عمرو بن مسعدة كتب إلى المأمون في أمر بعض أصحابه: " أما بعد فقد استشفع بي فلان إلى أمير المؤمنين ليتطوَّل في إلحاقه بنظرائه من الخاصة ، فأعلمته أن أمير المؤمنين لم يجعلني في مراتب المستشفعين، وفي ابتدائي بذلك تعدِّي طاعته" فوقَّع المأمون في ظهر كتابه، وقد عرفنا تصريحك له وتعريضك لنفسك، وقد أجبناك إليهما .

❖ والتلويح وهو في اللغة الإشارة إلى الغير من بعيد وتسمى به الكناية إذا كثرت وسائطها وتعددت ومنه قول الشاعر:

وما يك فيَّ من عيب فإني ... جبان الكلب مهزول الفصيل[٣]

فجبن الكلب عن النباح وهزال الفصيل جراء ذبح أمه قرى للأضياف كناية عن الكرم ، إلا أن الكناية في مثل هذا البيت تحتاج إلى كثير من الوسائط للوصول إلى المراد منها .

---

(١) علم البيان دراسة تحليلية لمسائل البيان – بسيوني عبد الفتاح فيود صـ٢٤١ ط٣ ط مؤسسة المختار للنشر والتوزيع –القاهرة ٢٠١٣م .

(٢) سورة الأنبياء آية ٦٣.

(٣) ينظر علم البيان- مختار عطية صـ١٣٣ وعلم البيان دراسة تحليلية لمسائل البيان – بسيوني عبد الفتاح فيود صـ٢٤١

❖ أما الرمز فهو في اللغة : أن تشير إلى قريب منك على سبيل الخفية، وأيضا الإيماء بالعينين والحاجبين والشفتين والفم،ولذا أطلقوه على الكناية التي قلت وسائطها أو انعدمت وكان بها نوع من خفاء التلازم بين المكنى به والمكنى عنه ، وقد ورد ذكر الرمز في القرآن الكريم في قوله تعالى مخاطباً سيدنا زكريا – عليه السلام – (قَالَ ءَايَتُكَ أَلَّا تُكَلِّمَ ٱلنَّاسَ ثَلَٰثَةَ أَيَّامٍ إِلَّا رَمْزًا ۗ)[١] وورد ذكره في الشعر أيضا من ذلك قول الشاعر :

رمزت إليَّ مخافةً من بعلها ... من غير أن تبدي هناك كلاما

❖ والإشارة وتسمى الإيماء والإيحاء أيضا وهي كل كناية قلَّت وسائطها ووضحت لوازمها من غير تعريض كقول الشاعر :

متى تخلو تميم من كريم ... ومسلمة بن عمرو من تميم

فقد أشار إلى أن الكرم في تميم دائم لا ينقطع ، ثم أشار إلى أن مسلمة بن عمرو من هذه القبيلة فهو بالتالي كريم، ولا يحتاج ذلك إلى وسائط[٢]ومنه قول أبي تمام:

تعوَّد بسط الكف حتى لو أنه ... ثناها لقبض لم تطعه أنامله[٣]

وقد (ترددت في كتب البلاغيين أسماء عدة تطلق على مفهوم الكناية أو التعريض، منها : الإرداف و التمثيل والتلويح والرمز والإيماء والإشارة واللحن، وقد أخذ الأخير

---

(١) سورة آل عمران آية ٤١.

(٢) علم البيان بين النظريات والأصول – ديزيرة سقال صـ١٨٣ ط دار الفكر العربي – بيروت ١٩٩٧ .

(٣) ينظر علم البيان – مختار عطية صـ ١٣٤ وما بعدها .

من قوله عز وجل :" ولتعرفنهم في لحن القول "[١] ، فاللحن في الآية مراد به : التعريض بالشيء من غير تصريح به، أو الكناية عنه بغيره ... ولا يتسع المقام هنا لتفصيل القول في هذه المصطلحات وتتبعها في كتب البلاغيين ...)[٢]

- وقد وردت الكناية على هذه الصور في روايات (أيام العرب الجاهلية) بطريقة السرد والتسلسل ويكون ذلك بمولاة الأحداث بطريقة مرتبة طبيعية ، ومثال تلك الطريقة (يوم منْعِج)[٣]، ويقال له –أيضا– يوم الردهة ، وملخصه:

أن النعمان بن امرئ القيس –ملك الحيرة– تزوج إلى زهير بن جذيمة العبسي لشرفه وسؤدده، وأرسل إليه يستزيره[٤]بعض أولاده، فأرسل إليه زهير ابنه (شأس) ، فأكرمه النعمان وحباه مسكاً وكسوة ... ثم خرج شأس من عنده يريد قومه، فسار حتى ورد منعجاً (وهو ماء لغنى)، فأناخ وأنشأ يغتسل بين ناقته وبيت لرياح بن الأسك الغنوي، وامرأة رياح تنظر إليه، وهو مثل الثور الأبيض، فقال رياح لامرأته: أعطيني قوسي، ورماه بسهم فقتله، ونحر جمله وأكله، وأدخل متاعه بيته .

وفُقد شأس فأقبل أهله يقصُّون أثره، وعلموا أن رياحاً قتله، ولما علم أنهم يطلبونه به فرَّ هارباً، فلحقه أخوا شأس الحصين بن زهير، والحصين بن أسيد بن زهير فجرحاه وقتلهما، وأخذ رمحيهما وسلبهما، والتجأ إلى خيمة عجوز وهو جريح قد مات

---

(١) سورة محمد آية ٣٠ .

(٢) علم البيان – بسيوني فيود صـ ٢٤٢ .

(٣) هو يوم لعبس على غنى (حي من غطفان)، وتسميته بيوم منعج ترجع لصاحب العقد الفريد، قال أبو عبيدة : ويقال له يوم الردهة، وفي مجمع الأمثال للميداني : لبني يربوع على بني كلاب (ينظر أيام العرب في الجاهلية) صـ ٢٣٠ .

(٤) يطلب زيارة

عطشاً، فلما رأته يستدمي طمعت فيه وأرادت أسره، فقال: دعيني -ويحك- أشرب، فأبت عليه فقتلها، وعبَّ في الماء حتى نهل، ثم توجه إلى قومه[١] .

فقد جاءت الكناية في نظرة تلك المرأة (زوج رياح) إلى (شأس) بالتلويح في قوله (وامرأة رياح تنظر إليه) إذ يشعرنا الراوي -ونلمح هذا من تشبيهه لشأس بالثور الأبيض- بأنها بنظرها إلى شأس وهو عريان يغتسل قد تسببت في قتله ،فبنظرها إلى شأس قد تكون أثارت الغيرة ودفعتها في قلب رياح (زوجها) فقتله .

- وكما جاءت الكناية في الأيام الطويلة (منعج)، كذلك جاءت في الأيام القصيرة كـ (يوم النفراوات)[٢] وموضوعه :طغيان زهير بن جذيمة العبسي (سيد هوازن) فيهم، وتجبره عليهم ...(وكان زهير يعزهم[٣]، فإذا كانت أيام عُكاظ أتاها زهير ... فتأتيه هوازن بالإتاوة التي له في أعناقهم ...)[٤]، ثم انتقام عامر بن صعصعة (بطن من هوازن) على يد فتاها خالد بن جعفر العامري من زهير بن جذيمة ؛ لما كان في صدرهم منه من الغيظ والحنق بسبب تجبره، وكذلك بما فعله مع عجوز هوازن لما أتته (بسمن في نِحْي[٥]،

---

(١) ينظر أيام العرب في الجاهلية صـ٢٣٠ وما بعدها .

(٢) نفراوات : جمع نفرى وهي حرَّة (موضع في بلاد غطفان) .

(٣) يعزهم : يغلبهم .

(٤) أيام العرب في الجاهلية صـ ٢٣٥

(٥) النحي : الزق الذي يجعل فيه السمن .

واعتذرت إليه، وشكت إليه السنين التي تتابعت على الناس، فذاقه فلم يرض طعمه، فدعَّها[١] بقوس في يده عُطُل[٢]

في صدرها، فاستلقت لحلاوة القفا[٣]، فغضبت هوازن وصمدت له[٤]...)[٥]

فانظر إلى قوله :(فدعَّها بقوس في يده عطل) وقوله:(فاستلقت لحلاوة القفا...) فالعبارة الأولى كناية عن الإهانة وذلك لما تحولت القوس التي لا وتر فيها إلى عصا من جراء وصفها بقوله "عُطُل" ففقدت العصا صفة السلاح حينئذ، ورشح الراوي هذا المعنى الكناني وقواه بقوله "فدعها"– على ما سيأتي تفصيله لاحقا .

أما العبارة الثانية وهي قوله :(فاستلقت لحلاوة القفا) فهي كناية عن انكشاف العورة ، وفي ذلك أيضا ما فيه من المهانة عند العرب إذ من أجل ذلك تدور رحى الحروب ،وهنا آثر الراوي الأسلوب الكنائي لعلمه أن الكناية لها في البلاغة موقع عظيم (فإنها تفيد الألفاظ جمالاً، وتكسب المعاني ديباجة وكمالاً، وتحرك النفوس إلى عملها ، وتعو القلوب إلى فهمها، فإن أوقعتها في المدح كانت أرفع وأحسن ، وفي نفس الممدوح أوقع وأمكن، وإن صدَّرتها للذم كانت آلم وأوجع، وإلى ذكر فضائح المذموم أسرع وأخضع، وإن أدخلتها من أجل الحِجاج كان البرهان بها أوضح وأنور، والسلطان بها أقدر وأقهر، والإفحام بها أشهر، والتسلط أعظم وأبهر، وإن وقعت في الافتخار كان

---

(١) دعَّها : دفعها .

(٢) قوس عُطُل : لا وتر فيها .

(٣) حلاوة القفا : وسطه .

(٤) صمدت له : قصدته وانتظرت غفلته

(٥) أيام العرب في الجاهلية صـ ٢٣٥ وما بعدها .

ضياؤه أسطع، ومناره أعلى وأرفع، وإن كانت موجهة للاعتذار فهي إلى سل سخائم القلوب أعجل وأقرب، وبوحر الصدور وفلّ غرْب غضبها أذهب، وإن صُدِّرت للاتعاظ كانت للمبالغة في النصيحة أنجع، ولمرض القلوب أشفى وأنقع، وإن أردت بها جانب الإعتاب والرضا كانت بطيب الصحبة ولين العريكة أظفر، وعلى الوفاء بلوازم الألفة أوفر، فهي كما ترى واقعة من البلاغة في أعلى المراتب، وحائزة من الفصاحة أعظم المناقب)[١]

وتخضع أيام العرب في الجاهلية –بوصفها قصصاً قصيرة أو أقصوصات "قصيرة جداً"– لقانون الإيجاز (الاقتصاد في التعبير)، والمعني به إيجاز الحدث والقبض على وحدته .

وهذا القانون –إن صح التعبير وصحت التسمية– يرفض الشرح، وينأى عن السببية، ويبتعد عن الإطالة ، فلا مجال –غالباً– للترادف، ولا مكان للهذر والوصف، فتستغني الأيام (أيام العرب) بالضرورة عن كل الزوائد التي قد تثقل السرد، وتشتت الاهتمام، وتُفقد التركيز، فلا وصف فيها للأشخاص أو الأماكن والأشياء إلا مختصراً خاطفاً، أو بطريقة التلميح والإيحاء ،وهو ما يسميه النقاد (التكثيف)[٢]، وهذا يتوافق مع إحدى

(١) الطراز –العلوي صـ٢٠٣ .

(٢) التكثيف: مصطلح منقول من ميدان "علم النفس" إلى ميدان الأدب، وظيفته إذابة مختلف العناصر والمكونات المتناقضة والمتباينة، وجعلها في واحد، أو بؤرة واحدة تلمع كالبرق الخاطف، وهو يحدد بنية القصة القصيرة جداً ومتانتها، لا بمعنى الاقتصاد اللغوي فحسب؛ وإنما في فاعليته المؤثرة في اختزال الموضوع، وطريقة تناوله ...(ينظر تفسير الأحلام) – سيجموند فرويد– ترجمة مصطفى صفوان صـ ٢٩٢ .

طرق الكتابة البليغة، وإحدى المقولات العربية القديمة (البلاغة الإيجاز)، فلا مقدمات فائضة عن الحاجة، ولا تعليقات ختامية، ولا استطرادات في غضون السرد، وكأن القصة تبني الحدث كلمة كلمة، وجملة جملة بناءً محكماً لا فضول فيه ولا زيادة، معتمدة على كلمات قليلة ذات إيقاع وإيحاء، إلا ما كان يخدم القصة مباشرة بتوضيح شخصية الإبطال مثلا –وهنا يكون للحوار أهمية كبيرة– أو تفسير حدث من الأحداث، أو ربط العلاقات بين الحوادث فيما بينها، والأشخاص فيما بينهم، أو بخدمة الجو العام للقصة، فلا يكون الوصف –حينها– ولا إدخال عنصر ما، ولا إيراد حدث بسيط أمراً زائداً، أو تعبيراً مجانياً بلا داع، بل يجب أن يؤثر بصورة قريبة أو حتى بعيدة في تطور الأحداث، كما ينبغي من جهة الصياغة (أن تناسب كل كلمة السياق والموضوع...)[1] .

فالفضول والزيادة والاستطراد والمجانية ،كل هذه الأشياء عدو للحبكة القصصية، ويعني هذا أن القارئ المتدبر عليه أن يلتمس لكل كلمة، ولكل تركيب، ولكل عمل يحدث من الراوي مبرراً في خدمة القصة؛ للزيادة في حبكتها وإثراء شخصياتها، إذ الحكي المضغوط أو المضموم أو المكثف أو المركز حتى درجة التقطير –إن صحت التسمية هنا– ليس هدفاً في حد ذاته، بل يجعل من القصة بناءً متيناً، يمسك فيه الملاط المداميك، ويضيف إليها عنصراً جمالياً يضفي عليها الرونق والألق ألا وهو القوة

وهو في أحد تعريفاته: (الاختزال المبني على رؤية شاملة للفضاء الخارجي ...) ينظر (تداخل الأنواع في القصة المصرية القصيرة)– خيري دومة صـ ٢٥٢ ط الهيئة العامة للكتاب ١٩٩٨ .

(١) فن القصة القصيرة في أدبنا الحديث –عبد الحميد يونس صـ ٧٢ ط دار المعارف–١٩٧٣ .

الإقناعية للتعبير المركز الذي يتماشى –كما سبق– مع المقولة العربية الشهيرة (البلاغة الإيجاز) أو (البلاغة في الإيجاز) .

ومما جاء على هذه الطريقة من "أيام العرب الجاهلية" ما نراه في يوم (النفراوات) – السابق ذكره– من سوء معاملة زهير بن جذيمة للعجوز العامرية التي وافته بإتاوتها من سمن فلم يرضه (فدعها بقوس في يده عطل في صدرها فاستلقت لحلاوة القفا)، فوصف سقوط المرأة بعبارة (لحلاوة القفا) يبدو في ظاهره للوهلة الأولى فضولاً (يمكن حذفه) إذ كان يمكن للراوي أن يكتفي بقوله (فاستلقت)، أو يقول (فسقطت) أو ربما استخدم عبارة أخرى، لكن العبارة والوصف الذي اختاره الراوي يشعر من طرف خفي بانكشاف العورة من العجوز[١]، وانكشاف العورة له من الحياء وفقد الشرف وامتهان الكرامة معان كثيرة، فكأن زهيراً لم يعتد على المرأة بضربها بالقوس ؛ بل كشف عورتها، وهذا من شأنه أن يزيد بني عامر نقمة عليه، وكذلك نعت القوس بـ (العطل) أي الخالية من الوتر يشي بأنها أصبحت عصا ، وفقدت صفة السلاح، فصارت الإهانة مضاعفة، وكذلك –في باب الصياغة– اختيار الفعل (دعَّها) على ضربها أو دفعها ...إلخ ، إذ يشعر اللفظ بالعنف والقوة مع الجفوة والإهانة، لذلك قال الله –تعالى– في معرض إهانة الكافرين، والتنكيل بهم: (يَوْمَ يُدَعُّونَ إِلَىٰ نَارِ جَهَنَّمَ دَعًّا)[٢]، وفي معرض الفظاظة مع اليتيم وعدم العطف عليه والتلطف معه وزجره يقول –سبحانه– :(فَذَٰلِكَ الَّذِي يَدُعُّ الْيَتِيمَ)[٣] .

---

(١) في رواية العقد الفريد ليوم النفراوات (وهو لبني عامر على عبس): (فاستلقت على قفاها منكشفة ...) ينظر العقد الفريد لا بن عبد ربه الأندلسي ٩٦٤/١ ط دار الفكر .

(٢) سورة الطور آية ١٣ .

(٣) سورة الماعون آية ٢ .

فقد أدت الكناية دوراً كبيراً وكذلك التكثيف في أحداث القصة، وارتكز على عدة ركائز منها: شحن الجملة القصصية بالصورة الفنية التي تؤدي دور الوصف، وتشي بالمعنى، وتنم عنه، بالإضافة إلى الجمل المركزة ذات الطابع الموحي المختصر في أسلوب سردها، والقدرة على الإيحاء والتعبير والإشعاع بأكثر من دلالة .

هذا بالإضافة إلى الاقتصار على أقل عدد ممكن من الشخصيات، مع العناية باستهلال القصة لجذب القارئ (كان زهير بن جذيمة العبسي سيداً لهوازن، فكانت لا تراه إلا ربًّا، وهوازن يومئذ لا خير فيها، وإنما هم رعاء الشاء في الجبال ...)[1] .

والأمثلة على حسن اختيار الكلمات المعبرة الموحية، والتراكيب الواصفة كثيرة لا يكاد يخلو منها سطر من روايات (الأيام)، وعند أغلب كتاب الأدب أمثال أبي عبيدة، والجاحظ، والمبرد، والقالي، وابن قتيبة وغيرهم، وأعني بهم كتاب النوادر واللطائف ، والأخبار القصيرة والمِلَح، فقد كانوا ذوي براعة في اختيار الكلمة المصورة الناطقة المجسمة للهيئة والحركة، بل حتى الدالة على الطبع والنفسية، كأنهم اتخذوا من القرآن مثلاً يحتذونه في وجود الفجوات بين المشاهد والأحداث، وهذا دليل على اختفاء التفصيلات، وترك مساحة للعقل البشري (عقل القارئ) لأن يتصور الجزئيات، ومحاولة أن يعايش الأحداث .

ومثال آخر لذلك، ومن الإشارات التي تخدم الجو العام للقصة؛ تدخُّل الصُّرَد (جنس من البوم يتشاءمون منه) الذي يصرصر ثلاثاً فوق رأس الطريدين الوجلين اللذين ذهبت نفسهما شعاعاً يوم (منعج): رياح بن الأسك الغنوي، ورجل من بني كلاب (وخرج رياح رديفاً لرجل من بني كلاب، وكان معهما صُحَيفة فيها لحم؛ فأدخلا

---

(١) أيام العرب في الجاهلية – يوم النفراوات صـ ٢٣٥ .

يديهما في الصحيفة، فأخذ كل واحد منهما وَضْرَة[١] ليأكلها، مترادفين لا يقدران على النزول، فمر فوق رؤوسهما صرد فصرصر، فألقيا اللحم، وأمسكا بأيديهما، وقالا: ما هذا ؟!...)[٢].

فرياح يطلب النجاة من زهير وقومه، ويلوذ بالفرار على دابة الكلابي يطويان الأرض، ولا يترجلان حتى للطعام .

في هذا الجو المشحون بالخوف والحذر والظلام ،يأتي نذير الشؤم (الصرد)، فيمر مصرصراً فوق ركبهما ثلاثاً، فيزيدهما خوفاً على خوف، ورعباً على رعب، فلا يستسيغان اللقمة، ويحتمي كل منهما بالآخر تمسكاً بالأيدي، فيوحي الراوي للقارئ بهذا المشهد -بما لا يترك مجالاً للشك- أن ما يحذرانه واقع، وأن عدوهما مدركهما لاحقهما لا محالة .

ويلاحظ هنا أن الراوي لم يستعمل قط عبارة "خوف أو هلع" أو حتى ما يشاكلها، وإنما كنَّى بالإيحاء وأشعر بالخوف والهلع والشؤم بأنهما مدركان ؛باختياره للصرد تحديداً ثم بذكره ثلاثاً، ليصور مدى فزعهما وطيران قلبهما فزعاً ورعبا .

-ومن الكناية بالإشارة والرمز في (أيام العرب الجاهلية) لجوء الراوي إلى الرسائل المعماة ذات الألغاز، لا سيما — إذا كان المخبِر المنذر مأخوذاً عليه (أي أعطى عهداً بأن لا يدل القوم على من أعطاهم العهد، وأن يلتزم الحياد) أو كان في حالة أسر تمنعه من الكلام الصريح، فهناك -حينئذ- حيَلٌ نستطيع أن نسميها حيلاً إعلامية، أو حيلاً عسكرية، أو حيلاً طوطمية يلجأ إليها المأخوذ عليه ليوصل رسالته ويبلغ حجته،

---

(١) الوضْرة: القطعة الصغيرة من اللحم .

(٢)أيام العرب في الجاهليةً . ٢٣٢ .

ومن العجيب أن يتقبل المرسل إليه (المستقبِل) هذه الرسائل المعماة، وتلك الحيل فيحل ألغازها كما يفعل أهل المخابرات العسكرية في زماننا هذا، فيطبقون على الرسالة العيار السري (الشفرة) الذي تصبح به رموزها واضحة مفهومة .

من ذلك قول الراوي في يوم النفراوات (ثم انتقل زهير من قومه ببنيه وبني أخويه زنباع وأسيد يُريغ[١] الغيث في عشراوات[٢]له، وبنو عامر قريب منهم ولا يشعرون بهم، وكانت تماضر بنت الشريد امرأة زهير بن جذيمة، فمر بها أخوها الحارث[٣] ؛ فقال زهير لبنيه: إن هذا الحمار لطليعة[٤]عليكم فأوثقوه، فقالت أخته لبنيها: أيزوركم خالكم فتوثقوه وتحرموه؟! ثم حلبوا له وطْباً[٥]، وأخذوا منه يميناً ألا يخبر عنهم، ولا ينذر بهم أحداً، فخرج يطير حتى أتى بني عامر عند ناديهم، وأتى شجرة فألقى الوطب تحتها والقوم ينظرون، ثم قال: أيتها الشجرة الذليلة؛ اشربي من هذا اللبن وانظري ما طعمه؟ فقال أهل المجلس: هذا رجل مأخوذ عليه، وهو يخبركم خبراً ! فأتوه، وذاقوا اللبن، فإذا هو حلوٌ لم يقْرُص[٦] بعد، فقالوا: إنه ليخبرنا أن طلبنا قريب)[٧].

---

(١) يريغ : يطلب .

(٢) عشراوات جمع عشراء :وهي الناقة التي مضى لحملها عشرة أشهر .

(٣) كان الحارث قد أصاب دماً، ثم احتمى ببني عامر قوم خالد، وكان فيهم، ثم إن خالداً أرسله عيناً ليأتيه بخبر زهير .

(٤) طليعة : جاسوس .

(٥) الوطب: سقاء اللبن .

(٦) يقرص: يحمض .

(٧) أيام العرب في الجاهلية صـ ٢٣٦.

هذه الكنايات والمشوقات بقدر ما هي حيل قصصية يزين بها الراوي سرده للأحداث ويقوي انتباه سامعيه ويضاعف تشوقهم؛ بقدر ما هي حالات طارئة يكون فيها المبلِغ (المنذر) بين واجبين: واجب الوفاء بالعهد الذي قطعه على نفسه إن هو أقسم ألا يخبر، وأن يلتزم السكوت والحياد، وواجب الوفاء لقومه أو أحلافه أن يدل على عدوهم، فالصراع هنا صراع نفسي مؤداه: أيبر المخبر بالوعد والقسم أم يخون العهد ؟، لكن الراوي في تلك الحالة –أيضا– يحافظ على الأخلاق والمروءات، فيجعل المبلغ يأتي بحيلة أو "طوطمية"[1] بدوية جاهلية، فيبلِّغ دون أن يبلِّغ، ويخبر دون أن يتكلم، وذلك باستخدام الرموز التي لا يفهمها إلا الراسخون في الفراسة أو القيافة أو ما أشبه هذه المواهب، فإن فهمها القوم فقد بلغ دون أن يتكلم، وإن لم يفهموها فقد قام –على كل حال– بالواجب تجاه قومه .

فالراوي بذلك يدخل هذه الألغاز والتعميات، ليوجد عقبات جديدة في طريق أبطاله، فيتأخر الحل بذلك، ويقوى الاهتمام بالأحداث المتوقعة .

–ومن ذلك ما فعله كرِب بن صفوان من إنذاره لعبس وعامر في يوم (شِعْب جَبَلة) بعد أن أخذت عليه تميم وأسد وذبيان وأحلافهم عهداً ألا ينذر بني عامر: (وأقبلت تميم وأسد وذبيان ولِفُّهم نحو جبلة، فلقوا في طريقهم كرب بن صفوان السعدي –وكان شريفاً– فقالوا له: ما منعك أن تسير معنا في غزاتنا؟ قال: أنا مشغول في طلب إبل لي، فقالوا لا، بل تريد أن تنذر بني عامر، ولا نتركك حتى تعطينا عهداً وموثقاً ألا تفعل؛ فحلف لهم .

(١)الطوطمية : هي ما يمثل الرموز أو الأفكار أو الطقوس بين جماعة إنسانية كالقبيلة وغيرها .

ثم خرج عنهم وهو مغضب، ومضى مسرعاً على فرس له عُرْي[١]، حتى إذا نظر إلى مجلس بني عامر نزل تحت شجرة حيث يرونه، فأرسلوا إليه يدعونه، فقال: لست فاعلاً؛ ولكن إذا رحلتُ فأتوا منزلي فإن الخبر فيه .

فلما جاءوا منزله؛ إذا تراب في صُرَّة، وشوك قد كسرت رؤوسه، وفرقت جهته، وإذا حنظلة موضوعة، وإذا وطب معلق فيه لبن؛ فقال الأحوص: هذا رجل قد أخذت عليه المواثيق ألا يتكلم، وهو يخبركم أن القوم مثل التراب كثرة، وأن شوكتهم كليلة، وجاءتكم بنو حنظلة، انظروا ماذا في الوطب، فاصطبوه[٢] فإذا هو لبن قارص[٣]، فقال: القوم منكم على قدر حلاب اللبن إلى أن يحرز)[٤] .

فهذه الطرق من الكنايات والرموز والألغاز والمشوقات في طريقة الإبلاغ أكثر طرافة من الوسيلة الصريحة المكتوبة، أو الإنذار المباشر بواسطة صديق أو حليف، إذ الأخيرة لا تعمية فيها ولا تشويق ولا إدهاش .

والأمثلة على ذلك كثيرة في الأيام منها –أيضا– ما فعله ناشب بن بشامة العنبري[٥] الأعور، حين تجمعت اللهازم[٦] لتُغِير على تميم (يوم الوقيط)[٧]، وكان ناشب أسيراً في

---

(١) فرس عري: لا سرج عليه .

(٢) اصطبوه : أراقوه .

(٣) قارص: حامض .

(٤) أيام العرب الجاهلية صـ ٣٥٤، وفي رواية ابن الأثير اختلاف في تفسير الألغاز، وما تركه كرب بن صفوان (ينظر الكامل في التاريخ١/٣٥٦) .

(٥) من بني العنبر وهم بطن من تميم .

(٦) اللهازم : هم عنترة بن أسد بن ربيعة، وعجل بن لجيم، وتيم الله وقيس ابنا ثعلبة من بكر بن وائل وقد كانوا جميعاً حلفاء .

(٧) يوم الوقيط: لبكر (من ربيعة) على تميم، والوقيط: المكان الصلب الذي يستنقع فيه الماء، ثم أطلق على موضع .

قيس بن ثعلبة (فقال لهم ناشب :أعطوني رجلاً أرسله إلى أهلي بني العنبر وأوصه ببعض حاجتي، فقالت له قيس بن ثعلبة: ترسله ونحن حضور –وذلك مخافة أن ينذر عليهم– قال: نعم، فأتوه بغلام مولد فقال: أتيتموني بأحمق! قال الغلام : والله ما أنا بأحمق ، فقال الأعور : إني أراك مجنوناً! قال: والله ما بي من جنون. فال : فالنيران أكثر أم الكواكب؟ قال : الكواكب ، وكلٌ كثير. قال: إنك لغبي أحمق، وما أراك مبلغاً عني. قال : بلى، لعمري لأبلغن عنك[١].

فملأ الأعور كفه من الرمل ، فقال له : كم في كفي؟ قال: لا أدري ، وإنه لكثير ما أحصيه، فأومأ إلى الشمس بيده، وقال له : ما تلك؟ قال: هي الشمس ، قال: ما أراك إلا عاقلاً ظريفاً ، اذهب إلى أهلي فأبلغهم عني التحية والسلام ،وقل لهم : ليحسنوا إلى أسيرهم ويكرموه، فإني عند قوم يحسنون إليَّ ويكرمونني ... وقل لهم: فليُعرُّوا جملي الأحمر، ويركبوا ناقتي العيساء[٢] بآية ما أكلت معهم حيساً[٣]، وليرعوا حاجتي في أُبَيْني مالك[٤]، وأخبرهم أن العوسج[٥] قد أورق، وأن النساء قد شكَّت[٦] شكَّت[٦] ...)[٧].

---

(١) أيام العرب صـ ١٧٠ .

(٢) الناقة العيساء : البيضاء يخالط بياضها شقرة .

(٣) الحيس : تمر يخلط بسمن أو أقط .

(٤) يرعوا : يحفظوا، وأبيني : تصغير بنين .

(٥) العوسج: شوك .

(٦) شكت النساء: اتخذت الشكاء (جمع شكوة: وعاء من أدم يبرد فيه الماء)

(٧) أيام العرب صـ ١٧١ .

وهذه الكناية هي التي عبر عنها الإبشيهي في (مستطرفه) بقوله: (ومن غريب الكنايات الواردة على سبيل الرمز وهو من الذكاء ، والفصاحة ، ما حُكي أن رجلاً كان أسيراً في بني بكر بن وائل، وعزموا على غزو قومه، فسألهم في رسول يرسله إلى قومه، فقالوا لا نرسله إلا بحضرتنا لئلا تنذرهم وتحذرهم، فجاؤوا بعبد أسود فقال له: أتعقل ما أقوله لك؟ قال نعم :إني لعاقل ...)[١] ثم ذكر القصة السابقة مع بعض التغيير في الألفاظ .

ومن العجيب أن يلتقط المستقبِل الرسالة المعماة (الرمز)، ويحل شفرتها وذلك كما جاء في الأيام:(ياللعنبر : قد بيَّن لكم صاحبكم ؛ أما الرمل الذي جعل في يده فإنه يخبركم أنه قد أتاكم عدد لا يحصى، وأما الشمس التي أومأ إليها، فإنه يقول: إن ذلك أوضح من الشمس، وأما جمله الأحمر فالصَمَّان[٢] يأمركم أن ترتحلوا عنه، وأما ناقته العيساء؛ فإنها الدهناء[٣] يأمركم أن تتحرزوا فيها، وأما أبينو مالك فإنه يأمركم أن تنذروهم ما حذركم، وأن تمسَّكوا بحلف بينكم وبينهم، وأما إيراق العوسج؛ فإن القوم قد اكتسوا سلاحاً، وأما اشتكاء النساء فيخبركم أنهن ... وقوله بآية ما أكلت معكم حيساً، يريد أخلاطاً من الناس قد غزوكم؛ لأن الحيس يجمع التمر والسمن والأَقِط)[٤].

---

(١) المستطرف في كل فن مستظرف – شهاب الدين محمد بن أحمد الإبشيهي صـ ٦٨ ط دار مكتبة الحياة – بيروت عام ١٩٨٦ .

(٢) الصمان : جبل أحمر في أرض تميم .

(٣) الدهناء : سبعة أجبل من الرمل وهي ديار لعامة بني تميم .

(٤) أيام العرب صـ ١٧٢ .

هذا النوع من التشويق عن طريق الكناية الطوطمية المعماة والملغزة الرامزة أو التورية كثير جداً في القصص القديم وحتى الحديث، والقصد منه –مع التشويق– إظهار الذكاء والدهاء والفطنة، مما لا يتسنى لعُرض الناس، وهذه الكنايات أو التمويهات والتوريات ليست من الغموض المبالغ فيه بحيث لا تخفى على الطرف المقابل (العدو)، فأدنى اجتهاد منهم يتطلب أن يتساءلوا عن فائدة هذه الرسالة، وعن حاجة المبلغ "الأسير" أن يبلغها في ذلك الحين بالذات(حين رآهم يتأهبون لغزو قومه) فكأنهم على قسط كبير من السذاجة والسطحية بل والتسامح ، إذ يلبون رغبات أسراهم حتى لو كانت إرسال رسول خاص بالوصية .

والغرض –كما سبق– هو لجوء الراوي إلى هذه الألغاز والكنايات والتوريات والتمويهات للزيادة في التشويق والحبكة .

ولما كان الزمان ركناً أساسياً في البناء القصصي لأيام العرب ؛ إذ هو الحيز الطبيعي الذي يقع فيه الحدث، وتتحرك في مجاله الشخصيات، ولا يختلف اثنان في مدى أهميته بوصفه عنصراً حيوياً في التركيب الأدبي والفني للقصة أيا ما كان نوعها ؛ فقد وضع فيه الراوي بعض الكنايات

وقد أهمل الراوي –غالباً– في (أيام العرب الجاهلية) التحديد والتدقيق الزماني، واكتفى بالتعبير المبهم العام أو الموحي كقوله: (فمضى لذلك ما شاء) وقوله: (... غبر على ذلك دهراً...) وقوله: (واقتتلوا قتالاً شديداً كامل يومهم ...) وقوله: (وبقوا ما شاء الله ...) وقوله: (وحجز بينهم الليل ...) وقوله: (حتى حال الليل بينه وبينهم ...) إلى آخر ذلك من التعابير التي أبهم فيها الراوي تحديد الزمن، وذلك ليعكس تصرفه في الزمن القصصي تصرفاً محكماً .

وهكذا يسير الراوي في سرد أحداث الأيام، فتارة يطيل ، ويوجز أخرى، وثالثة يأتي بالصورة غنية بالإيحاء مع شدة اختصارها ، كالاستعارة التبعية في قوله: (حتى قطع العطش أعناقهم فماتوا) وهي داخلة أيضا في باب المجاز العقلي لعلاقة السببية باسناد الفعل قطع إلى سببه وهو العطش، فانظر إلى (قطع العطش أعناقهم) كيف جاءت قليلة المبنى، كثيرة المعنى، غنية الإيحاء، ورابعة ينتقي الفعل انتقاءً ليشعر القارئ والسامع بمدى السرعة والتلهف إلى تبليغ الخبر، أو بمدى الغضب المتولد من الانفعال النفسي مع تلوين الحركة حين يقول في الحالة الأولى: (فخرج يطير حتى أتى بني عامر عند ناديهم) فعبر بالفعل "يطير" ليكني عن مدى السرعة وشدتها، مع أنه مأخوذ عليه ألا يخبر ولا يدل ، وفي الحالة الثانية يقول: (فنزع رأسه من يدها وخرج)، والحديث عن كليب وائل حين سأل امرأته :من أعز وائل؟ فأجابت : أخواي جساس وهمام، فأتى الراوي بالفعل "نزع" ليكني به وليبين مقدار غضب كليب على امرأته ، وقد كانت تغسل رأسه وتسرح شعره .

وخامسة ينتقي الراوي الفعل بعناية ليظهر مدى الافتعال والتكلف، وإظهار الإنسان خلاف ما يبطن اعتمالاً وتكلفاً لحاجة في نفسه، كقوله عن حذيفة بن بدر وقد تكلف الحزن على صهره: (...فعصر عينيه وقال: هلك سيدنا...)[١]، فانظر إلى الفعل "عصر" كيف اختزل المشهد والموقف في كلمة .

ومما جاء على هذه الطريقة في أيام العرب الجاهلية :حرب البسوس[٢].

---

(١) أيام العرب صـ ٢٦١

(٢) وقعت هذه الحرب بين بكر وتغلب ابني وائل ، وقد مكثت أربعين سنة ووقع فيه العديد من الأيام .

وتتلخص هذه الحرب في عدة مشاهد تقدم إلى القارئ على هذا النحو:

- نزول البسوس بنت منقذ ضيفة على ابن أختها جساس بن مُرَّة ،ومعها ناقة خوَّارة[١] لها فصيل .

- محاورة كليب وائل لامرأته (جليلة بنت مرة) من أمنع منه ذمة، ومن أعز وائل؟.

هذان المشهدان في حالة تقابلية، وإن كانا متوازيين في الزمان متلاحقين في السرد .

- ثم يأتي حادث الاعتداء على ناقة البسوس من كليب لما مرت عليه إبل جساس وفيها ناقة البسوس فأنكرها وقال: أوبلغ من أمر ابن السعدية[٢] أن يجير عليَّ بغير إذني ؟! فيأمر غلامه فيرميها بسهم في ضرعها فيختلط دمها بلبنها[٣] .

- ويلي هذا المشهد مشهد آخر وهو انتقام جساس بقتل كليب لفعلته السابقة، ولأنه أجلى أهل جساس عن الماء حتى كادوا يموتون عطشاً[٤].

- ثم بعد ذلك يقابل الراوي بين الحيين (البكري والتغلبي) في استعدادهما للحرب، أو للتفاوض في شأن الدية (إن كان قبول الدية ممكناً) لا سيما أن جليلة قالت لأبيها: (أمنية مخدوع ورب الكعبة ، أبالبدن تدع لك تغلب دم ربها) لما قال لها : أويكفِ ذلك كرم الصفح وإغلاء الديات؟[٥].

- ثم يُدخل الراوي مشهداً ثالثاً موازياً في الزمن لمشهدي التفاوض؛ وهو مشهد منادمة همَّام بن مرة (أخي جساس) للمهلهل (أخي كليب) .

---

(١) خوارة : حسنة رقيقة

(٢) يعني جساساً .

(٣) ينظر أيام العرب في الجاهلية صـ١٤٥

(٤) يراجع تفاصيل ذلك (أيام العرب في الجاهلية)صـ ١٤٦ .

(٥) السابق صـ ١٤٦.

- ثم يتحول دور البطولة إلى همام والمهلهل، وتدور حولهما الأحداث، وذلك بعد خروج البطلين الأصليين (جساس وكليب) من مسرح الأحداث بقتل الثاني وهروب الأول .

وعلى هذه الطريقة تتناوب الأحداث وتتراوح وتتداول، مشهداً بعد مشهد، أو مشهداً إزاء مشهد، أو مشهداً بدل مشهد، إلى آخر تلك الحرب بين بكر وتغلب ابني وائل والتي اختصر الراوي سنيِّها الأربعين في حوالي ثلاثين صفحة تقريباً .

وهنا قد توجِد التراكيب والجمل عند الراوي عن طريق الكناية من القوة الإيحائية والدلالية ما لم تذكره كتب البلاغة العربية بين صفحاتها ، كقوله على لسان جليلة بنت مرة لأبيها يوم البسوس لما رأت أخاها يقبل مسرعاً: (إن ذا لجساس أتى كاشفاً ركبتاه)[١]، فانكشاف الركبتين عند جساس يوحي بالأمر الجلل، وفداحة الخطب ، وعظم الرزية، وهو ما أكده الراوي بقوله على لسان مُرَّة "أبي جساس" :(والله ما خرجت ركبتاه إلا لأمر عظيم)، فإركاض الفرس، وحثه على السير بسرعة شديدة مع كشف الركب يوحي بالأمر العظيم، ولم تذكر كتب البلاغة العربية شيئاً عن ذلك ، لذا يجوز لنا أن نقترح إضافة عبارة (كشف عن ركبتيه) إلى كنايات العرب الواردة في معنى الشدة وعِظَم الخطْب .

كذلك جاء في يوم (طِخفة)[٢] وملخصه : أن الردافة (وهي بمنزلة الوزارة) لملوك الحيرة كانت في بني يربوع ، وفي عهد الملك المنذر بن ماء السماء كانت الردافة لعتَّاب بن

---

(١) السابق صـ١٤٦، وركبتاه: كتبتها كما جاءت في النص وإن كانت خطأ إعرابيا، والصواب ركبتيه، وجاءت القصة في "الكامل" لابن الأثير بقوله: (بادي الركبتين) .

(٢) يوم لبني يربوع على المنذر بن ماء السماء، وطخفة: موضع في طريق البصرة إلى مكة (أيام العرب صـ٩٤).

هرِمى بن رباح بن يربوع، ولما مات نشأ له ابن يقال له عوف بن عتَّاب، فقال حاجب بن زرارة للمنذر: إن الردافة لا تصلح لهذا الغلام لحداثة سنه فاجعها لرجل كهل، قال: ومن هو؟ قال: الحارث بن بَيْبَة المجاشعي ... فقالت بنو يربوع إنه لا حاجة لإخواننا فيها، ولكن حسدونا مكاننا من الملك، وعوف بن عتاب على حداثة سنه أحرى بالردافة من الحارث بن بيبة، ولن نفعل ولن ندعها. فقال: فإن لم تدعوها فأذنوا بحرب، قالوا: دعنا نسر عنك ثلاثاً ثم آذنا بحرب...)[١]

ومما جاء في هذا اليوم(ولما مضى ثلاث أرسل الملك قابوس ابنه وحساناً أخاه في جيش كثير من أفناء[٢] الناس، واحتبس عنده شهاب بن قيس اليربوعي وحاجب بن زرارة، فلما مضى الجيش ثلاث دعاهما الملك ... فقال لحاجب: يا حاج؛ قد سهرتُ الليلة فأرسلت إليك لتحدثني أنت وشهاب، ثم قال له: ما ظنك بالجيش يا حاجب؟ فقال حاجب: ظني أنك قد أرسلت جيشاً لا طاقة لبني يربوع به، وسيأتونك بهم وبأموالهم ظافرين، ثم التفت إلى شهاب وقال: وما ظنك أنت يا شهاب؟ فقال: أرسلت جيشاً مختلف الأهواء – وإن كثروا- إلى قوم عند نسائهم وأموالهم ، يدهم واحدة وهواهم واحد، يقاتلون فيصدقون، وظني أن سوف يظفرون بجيشك ويأسرون ابنك وأخاك! فقال حاجب: كذبت ... فقال شهاب : أنت أكذب، ثم تراهن هو وحاجب على مائة لمائة من الإبل، وكان لشهاب رئي من الجن، فقام مغضَباً وأتى مضجعه، وانتبه من الليل وهو يقول:

أنا بشير نفسِيَه ... نَفَرْتُ حاجباً مِيَه[٣]

---

(١) أيام العرب صـ ٩٤ .

(٢) أفناء: أخلاط .

(٣) أي أنه استحق المائة من الإبل التي تراهنا عليها .

ورددها مراراً، فسمعه الملك فقال لحاجب: ما يقول هذا؟ قال : يهجر[١] قال: لا والله ما أهجر، ولكن جيشك قد هُزم وأُسر ابنك وأخوك وآية ذلك أن يصبحك راكب بعير جاعلاً أعلى رمحه أسفله يخبرك بذلك)[٢].

فانظر كيف قامت الكناية في قوله: (عند نسائهم وأموالهم) بإيفاء المعنى حقه في إيجاز معجب، وذلك لأن الإنسان يكون أقوى وأشجع وأبسل ما يكون إذا قاتل أمام ودون نسائه فضلاً عن أولاده وأمواله، وكان العب قديما إذا أرادت حث الجنود أو أفراد القبيلة على القتال وعدم الاستسلام في الحرب أخذوا معهم الظعائن والنساء إلى أرض المعركة ثم يقول زعيمهم : ليقاتل كل منكم عن ظعينته، وكانت النساء تشجعن الرجال وتحثهن على القتال بكل وسيلة وهو ما فعلته "هند بنت عتبة" زوج أبي سفيان في حرب قريش مع الرسول – صلى الله عليه وسلم- إذ جمعت النساء وألفن ما يشبه الجوقة وصرن يقلن :

إن تقبلوا نعانق ... ونفرش النمارق

أو تدبروا نفارق ... فراق غير وامق

وانظر أيضا كيف أوفت الكناية المعنى في قوله: (يدهم واحدة وهواهم واحد) وهو الاتحاد وعدم التشرذم والتفرق .

---

(١) أهجر : أتى بالقبيح من الكلام .

(٢)أيام العرب صـ ٩٥.

الفصل الثاني

أسلوب الصياغة الفنية في كنايات (أيام العرب الجاهلية)

تحقق الكناية في الكلام ما لا يحققه التحدث بموضوع اللفظ في اللغة وحقائق الخطاب، ومن ثم فهي تحرز محاسن كثيرة تخصها عن غيرها ، وتجعل لجوء المتكلم أو المبدع إليها دون غيرها ضرورة تدعو إليها غيات الخطاب ومرادات السياق كتحقيق الفصاحة بترك اللفظ الصريح إلى لفظ الكناية حين لا يحسن التصريح به مثلاً، وفي ذلك إحراز مزية وحسناً عن التصريح إذ إثبات الصفة ودليلها آكد وأبلغ من إثباتها غفلاً ساذجة ،أو المبالغة في الوصف بذكر الردف والتابع الذي يقوي اللفظ الموضوع لذلك المعنى، وإبرازه وهو معقول في صورة المحسوس الزاخر بالحرة والحياة.

فأسلوب القصة ونسيجها – عموماً وفي أيام العرب خصوصاً – هو الأداة اللغوية التي تشمل السرد والوصف والحوار، ووظيفة هذا النسيج خدمة الحدث، إذ يسهم في تطويره ونموه إلى أن يصير كالكائن الحي المميز بخصوصيات محددة .

وللقصة في "أيام العرب " أسلوب متميز عن غيره ببعض الملامح الفنية، إذ أن الأسلوب المتبع في بنائها هو الأسلوب المبني على خطة، تعرف هذه الخطة بالسياق أو الحبكة، وهذه الخطة تبدأ عادة بمقدمة تنتقل منها إلى الحادثة حيث تصل ذروتها ، ثم تصل إلى الحل وهو النهاية "الخاتمة" ، وهي معنية –أيضا– في تناول حدث محدد في لحظة توتر بأقل عدد من الكلمات تصريحاً أو تلميحاً، لأنها –قبل كل شيء– نص مكثف سريع الإيقاع، فعلي الجملة –في الغالب– مكثف الهوية ، مجمل الأحداث يطوي الأعوام والأيام ، ينأى بنفسه عن أي حشو أو تطويل ليس من ورائه طائل.

وأسلوب القص في "أيام العرب الجاهلية" يتنوع تنوعاً يتوافق مع الحوادث ويتلون بحسب المواقف:

- ففي وصف القتال ،أو تفصيل الاستعداد له ،أو ذكر نتائج الحروب ؛تكثر الجمل الفعلية التي تفيد التجدد والحدوث وتعدد الأحداث المتلاحقة المتغيرة، كقول الراوي: (كانت بنو عامر بن صعصعة قوماً خُمساً لقاحاً[١]، فلما ملك النعمان بن المنذر، كان يجهز كل عام لطيمة[٢] لتباع بعكاظ، فتعرض لها بنو عامر يوماً، فغضب لذلك النعمان، وبعث إلى (وبرة الكلبي) أخيه لأمه، وبعث إلى صنائعه ووضائعه[٣]، وأرسل إلى بني ضبة بن أد وغيرهم من الرباب وتميم، فأجابوه، وأتاه ضرار بن عمرو الضبي في تسعة من بنيه كلهم فوارس ...)[٤].
- وقوله :(ثم إن حُجراً وفد على أبيه الحارث في مرضه الذي مات فيه، وأقام عنده حتى هلك، ثم أقبل راجعاً إلى بني أسد، وكان يقدم بعض ثقله[٥]أمامه، ويهيأ نزله ثم يجيئ وقد هيئ له من ذلك ما يعجبه فينزل ، ويقدم مثل ذلك إلى ما بين يديه من المنازل، فيضرب له في المنزلة الأخرى...)[٦].

---

(١) الحمس: المتحمسون المتشددون في دينهم، واللقاح: الذين لا يدينون للملوك .

(٢) اللطيمة : عير تحمل المسك .

(٣) الصنائع: جماعة كانوا ينتخبون من بني ثعلبة خاصة كالحرس لا يبرحون باب الملك، والوضائع: ألف رجل من الفرس كانوا يستخدمون في نصرة العرب ، ويستبدلون بمثلهم كل عام .

(٤) ينظر أيام العرب (يوم السلان) صـ ١٠٧، ويوم السلان يوم لبني عامر على النعمان بن المنذر ، والسلان في الأصل بطون من الأرض غامضة ذات شجر ، ثم سميت بها بعض المواطن، (ينظر معجم البلدان) ياقوت الحموي ١٠٤/٥ .

(٥) الثقل: متاع السفر .

(٦)أيام العرب صـ ١١٢ (يوم حجر) ، ويوم حجر : يوم لبني أسد على حجر ملك من ملوك كندة (ينظر الأغاني ٨١/٩ ،والكامل ٣٠٤/١) .

وهكذا يظل الراوي يلح على رصد الأحداث معبراً عنها بفعلية الجملة التي تفيد ما لا يفيده غيرها .

- فإذا رأى الراوي أن يُفصِّل ويوضح، أو أن يصرح ولا يلمح ، أو أن يؤكد فإنه يلجأ إلى ازدواج الجمل كقوله (...ولما علم امرؤ القيس بمكانهم، أمر بإنزالهم، وتقدم بإكرامهم، والإفضال عليهم ...)[1].

فالجمل السابقة أربع جمل، جاءت فيها الجملة الثانية متممة لمعنى الأولى بمنزلة التوكيد للأولى، والرابعة توكيد للثالثة، إذ لم تزد كل منها على سابقتها شيئاً إلا في مجرد التنغيم الذي يؤول إلى السجع .

- أما إذا كان الموقف إظهاراً للإقناع، والاحتجاج والخطابة؛ فإن الجمل تطول وتتشعب وتثقل مع بعض السجع أيضا، كما في مفاوضة قبيصة بن نعيم الأسدي لامرئ القيس (فخرج عليهم ...، وبَدَر إليه قبيصة وقال: إنك في المحل والقدر، والمعرفة بتصرف الدهر، وما تحدثه أيامه، وتنتقل به أحواله، بحيث لا تحتاج إلى تبصير واعظ، ولا تذكرة مجرب، ولك من سؤدد منصبك، وشرف أعراقك، وكرم أصلك في العرب محتمل يحتمل ما حمل عليه من إقالة العثرة، ورجوع من الهفوة، ولا تتجاوز الهمم إلى غاية إلا رجعت إليك، فوجدت عندك من فضيلة الرأي، وبصيرة الفهم، وكرم الصفح، في الذي كان من الخطْب الجليل الذي عمَّت رزيته نزاراً واليمن، ولم تخصص به كندة دوننا،

(١) أيام العرب صـ ١١٧ .

للشرف البارع كان لحجر التاج والعِمَّة فوق الجبين الكريم، وإخاء الحمد، وطيب الشيم ...)[١].

- فإذا كان الموقف موقف قتال وصبر وتجلد؛ كان الكلام أوجز، والجمل أقصر، والفواصل أكثر، والتوقيع أظهر، واللفظ على تصوير الحدث أقدر، من ذلك قول هانئ بن مسعود الشيباني في يوم ذي قار[٢] :(يا قوم: مهلك مقدور خير من نجاء معرور[٣]، وإن الحذر لا يدفع القدر، وإن الصبر من أسباب الظفر، المنية لا الدنية، واستقبال الموت خير من استدباره، والطعن في الثغر أكرم من الطعن في الدبر، يا قوم جدوا فما من الموت بُد، فتحٌ لو كان له رجال، أسمع صوتاً ولا أرى قوماً، يا آل بكر شدوا واستعدوا، وإلا تشدوا تردوا)[٤].
- ومن ذلك -أيضا- قول شريك بن عمرو بن شراحيل —يوم ذي قار أيضا- :(يا قوم إنما تهابونهم أنكم ترونهم عند الحفاظ أكثر منكم، وكذلك أنتم في أعينهم، فعليكم بالصبر، فإن الأسنَّة تردي الأعنَّة، يا آل بكر قُدماً قُدماً)[٥].

---

(١) أيام العرب صـ ١١٧ .

(٢) يوم ذي قار : لبكر على العجم ، وذوقار: ماء لبكر قريب من الكوفة، ويعد هذا اليوم من مفاخر بكر، ووقعة ذي قار كانت وقد بعث النبي —صلى الله عليه وسلم- وخبر أصحابه بها فقال: (اليوم أول يوم انتصفت فيه العرب من العجم وبي نصروا) ينظر أيام العرب صـ٦ ، العقد الفريد ٣٧٤/٣ ، الأغاني ٩٧/٢ ، النقائض ٦٣٨ ، معجم البلدان ٣٥٢/٣ .

(٣) معرور : معاب .

(٤) أيام العرب في الجاهلية صـ ٣١ .

(٥) السابق صـ ٣١، وقدما قدما : أي تقدموا .

- وإذا كان الكلام في مواقف المباغتة والطروء والفجاءة؛ كان الكلام أشد إيجازاً كقول الراوي:(فلم تؤذنهم بهم إلا والخيل دوائس محاضر[١] بالقوم غديَّة ...)[٢].

فنعت الخيل بالدوائس والمحاضر يصور ويصف التلاحق والقفز عند الهجوم، واستعمال الظرف (غديَّة) يصف المباغتة في الصباح الباكر، فهو أدعى للفجأة والانتصار، فمن فنون الحرب قديماً أن تبدأ الحرب مع أول ضوء النهار، وهذا ما أكده النص القرآني في أكثر من موضع فقال الله –سبحانه– :(فَالْمُغِيرَاتِ صُبْحًا)[٣]، وقال أيضا :(فَإِذَا نَزَلَ بِسَاحَتِهِمْ فَسَاءَ صَبَاحُ الْمُنذَرِينَ)[٤]، وعن أنس بن مالك عن طلحة قال: لما صبَّح رسول الله –صلى الله عليه وسلم– خيبر، وقد أخذوا مساحيهم وغدوا إلى حروثهم وأراضيهم، فلما رأوا النبي –صلى الله عليه وسلم– ولوا مدبرين، فقال النبي –صلى الله عليه وسلم– : (الله أكبر الله أكبر، إنَّا إذا نزلنا بساحة قوم فساء صباح المنذرين)[٥] .

.

وهكذا يسير الراوي في سرد أحداث الأيام، فتارة يطيل ، ويوجز أخرى، وثالثة يأتي بالصورة غنية بالإيحاء مع شدة اختصارها وتكثيفها ، كالاستعارة في قوله: (حتى قطع العطش أعناقهم فماتوا)، فانظر إلى (قطع العطش أعناقهم) كيف جاءت قليلة المبنى،

---

(١) دوائس : يتبع بعضها بعضاً، والمحضار : الكثير الحضر، والحضر ارتفاع الفرس في عدوه .

(٢) أيام العرب صـ ٢٣٨ .

(٣) سورة العاديات آية ٣ .

(٤) صورة الصافات آية ١٧٧.

(٥) رواه أحمد في مسنده ، وقال هو صحيح على شرط الشيخين .

كثيرة المعنى، غنية الإيحاء، رائعة الدلالة على احدث والمعنى، ورابعة ينتقي الراوي الفعل انتقاءً ليشعر القارئ أوالسامع بمدى السرعة والتلهف إلى تبليغ الخبر إلى قومه، أو بمدى الغضب المتولد من الانفعال النفسي مع تلوين الحركة حين يقول في الحالة الأولى: (فخرج يطير حتى أتى بني عامر عند ناديهم) فعبر بالفعل "يطير" ليكني عن مدى السرعة وشدتها، مع العلم أنه مأخوذ عليه ألا يخبر ولا يدل ولا يصرح، وفي الحالة الثانية يقول: (فنزع رأسه من يدها وخرج)، والحديث عن كليب وائل حين سأل امرأته :من أعز وائل؟ فأجابت : أخواي جساس وهمام، فأتى الراوي بالفعل "نزع" ليبين مقدار غضب كليب على امرأته ، وقد كانت تغسل رأسه وتسرح شعره .

وخامسة ينتقي الراوي الفعل بعناية ليظهر مدى الافتعال والتكلف، وإظهار الإنسان خلاف ما يبطن اعتمالاً وتكلفاً لحاجة في نفسه، كقوله عن حذيفة بن بدر وقد تكلف الحزن على صهره: (...فعصر عينيه وقال: هلك سيدنا...)[1]، فانظر إلى الفعل "عصر" كيف اختزل المشهد والموقف في كلمة .

وقد توجِد التراكيب والجمل عند الراوي من القوة الإيحائية والدلالية أو الرمزية ما لم تذكره كتب البلاغة العربية بين سطورها أو صفحاتها ، كقوله على لسان جليلة بنت مرة لأبيها لما رأت أخاها يقبل مسرعاً: (إن ذا لجساس أتى كاشفاً ركبتاه)[2]، فانكشاف الركبتين عند جساس يوحي بالأمر الجلل، وفداحة الخطب ، وعظم الرزية، وهو ما أكده الراوي بقوله على لسان مُرَّة "أبي جساس" :(والله ما خرجت ركبتاه إلا

(١) أيام العرب صـ ٢٦١ .

(٢) السابق صـ١٤٦، وركبتاه: كتبتها كما جاءت في النص وإن كانت خطأ إعرابيا، والصواب ركبتيه، وجاءت القصة في "الكامل" لابن الأثير بقوله: (بادي الركبتين) .

لأمر عظيم)، فإركاض الفرس، وحثه على السير بسرعة شديدة مع كشف الركب يوحي بالأمر العظيم، ولم تذكر كتب البلاغة شيئاً عن ذلك .

وقد يأتي الراوي بالفعل جديد الاستعمال في بابه على غير ما قاله النحاة، وذلك كقوله في وصف نشأة الفرس "داحس" : (وخرج أجود خيول العرب)[١]، فليس الفعل "خرج" من أفعال التحويل أو الشروع المعروفة في علم النحو.

وأخيراً ربما أتى الراوي بالتعبير سهلاً قريب التناول ، تحسبه كلاماً عادياً ، إلا أنه بعيد عن السطحية والإسفاف والمرذول، له على غيره من الكلام ميزة كقوله: (واكتب إليَّ بخبرك من منزلٍ منزل)[٢]، فهذا التعبير أوجز وأفضل من قوله مثلاً: "واكتب إليَّ من كل منزل تنزل به"، وهو كذلك ليس بعده في الوضوح والدلالة على المعنى المراد .

هذا بعض ما كان من مميزات الصياغة الفنية، وأسلوب التعبير وطريقته في (أيام العرب في الجاهلية)، وكما سبق لا تخلو صفحة من تعبير، بل لا يخلو سطر من كلمة تدل على عناية الراوي بأسلوبه، وانتقاء كلماته بعناية تلفت الانتباه، وثير الإعجاب ، وتنفي الفضول، وتومئ إلي المراد، وتشير إلى المطلوب من المقاصد والأهداف من أقصر طريق بواسطة أو بغير واسطة، وكأن الراوي يعلم أن النفوس شغوفة بالغامض ، وأن سكونها متوقف على إخراجها من هذا الغامض إلى واضح ومن خفي إلى جلي، وإبانتها بصريح بعد مكنى عنه .

---

(١) نقائض جرير والفرزدق- أبو عبيدة ١/ ٨٣ .

(٢) أيام العرب صـ ١٢٢ .

الخاتمـة

الحمد لله رب العالمين بدءاً ومنتهى،من أنطق الإنسان بعجيب البيان، والصلاة والسلام على النبي المجتبى، من تبوأ من الفصاحة ذروتها ، واقتعد من البلاغة مكان صهوتها، وعلى آله وصحبه الطيبين أجمعين وبعد ...

فإن العلوم البلاغية وإن عظم في الشرف شأنها ، وعلا على أوج الشمس قدرها إلا أن علم البيان هو أميرها وواسطة عقدها، والكناية منه بمنزلته من علوم البلاغة وكيف لا وقد أفاض البلغاء في الحديث عنها تعريفا وتقسيما وعن سر جمال التعبير بها ما يمتنع على الحصر فقد (قال السكاكي : الكناية تتفاوت إلى تعريض وتلويح ورمز وإيماء وإشارة ، فإن كانت عرضية فالمناسب أن تسمى تعريضاً وإلا فإن كان بينها وبين المكنى عنه مسافة متباعدة لكثرة الوسائط ...فالمناسب أن تسمى تلويحاً لأن التلويح هو أن تشير إلى غيرك عن بُعد، وإلا فإن كان فيها نوع خفاء فالمناسب أن تسمى رمزاً لأن الرمز هو أن تشير إلى قريب منك على سبيل الخفية ...وقد أطبق البلغاء على أن المجاز أبلغ من الحقيقة وأن الاستعارة أبلغ من التصريح ... وأن الكناية أبلغ من الإفصاح بالذكر قال الشيخ عبد القاهر ليس ذلك لأن الواحد من هذه الأمور يفيد زيادة في المعنى نفسه لا يفيدها خلافه بل لأنه يفيد تأكيداً لإثبات المعنى لا يفيده خلافه)[1]

---

(١) الإيضاح في علوم البلاغة – الخطيب القزويني صـ ١٨٨ ط دار الجيل .

كذلك فإن أيام العرب الجاهلية جزء من الرصيد الثقافي العربي، لما لها من منهجية خاصة اتبعها الرواة في تأليف هذه النصوص، والتعبير عنها ، وفي رصدها وتصويرها للمجتمع الجاهلي في أحواله –لا سيما– سلمه وحربه على ما تقتضيه طبيعة البداوة، ولما لها من شأن كبير عند المؤرخين العرب الأولين، الذين كانوا يصعدون في تأريخهم لحياة العرب إلى البشرية الأولى، إلى العماليق وعاد وثمود، ويعرِّجون نزولاً على أخبار طسم وجديس وغيرهما من القبائل التي بادت، ثم يهتمون بالقبائل القائمة فيدرجون أيامها في صلب التاريخ ويفصلون أحداثها بنفس العناية التي يولونها للفتوحات والمغازي الإسلامية التي جاءت فيما بعد والتي يؤرخون بها لانتصارات الإسلام وانتشاره، أو حتى أخبار العصور والدول المتقدمة من عمر الإسلام كالدولة الأموية والعباسية.

إلا أن اهتمام المؤرخين بروايات الأيام لا يجبرنا –بالضرورة– على تقبلها منهم كما وردت، وتصديق كل ما ترويه لنا من أسباب الحروب أو نتائجها، وتشعب الأحداث وتفاصيلها، كما لو كانت تاريخاً مرتباً مضبوطاً، في نصوص شبه تاريخية تقع في مرحلة وسط بين الأسطورة والحقيقة، لأنها –كثيراً– تميل إلى الإبهام والتضخيم' إلا أنها –في المجمل– تعطينا صورة أولية عن المجتمع الجاهلي بكل ما فيه ومن فيه، هذه الصورة تواصلت ملامحها في المجتمع الإسلامي الأول بعد وفاة النبي –صلى الله عليه وسلم– مباشرة، حين عادت العصبيات القديمة إلى شدتها، وصار التنافس على الحكم يوقظ العداوة ويغذي الإحن والأحقاد الدفينة التي كانت تمزق العرب بين قيسية ويمنية، وتميمية وبكرية ....إلخ .

كل الذي يعنينا على الأقل في سطور هذا البحث وعبر صفحاته هو الأسلوب الذي عبر به الرواة عن الأحداث حباً وبغضاً، حرباً وسلماً، حقيقة ومجازا وأخص تحديداً الأسلوب الكنائي وبعض صوره في أيام العرب .

بالإضافة إلى أنها تعطينا فرصة كبيرة لاستنباط عناصر الفن القصصي فيها والأسلوب المتبع فيه –لا سيما من جهتي التركيب الأسلوبي القصصي وأسلوب الصياغة، وهي كذلك تضفي على الأخبار التي فيها جواً ملحمياً، وتصبغ أعمال الأشخاص بأبعاد بطولية، وتسجل كل ما يصدر عنهم من كلمات أو حتى إشارات ؛ لأن المواقف الحاسمة تُنطق المرء بالكلام البليغ، فيصير كأنه الحكمة بعينها أو يصير مثلاً سائراً –وهو كثير في الأيام– خاصة ما ورد على لسان رؤساء القبائل أو حكمائها ، حتى أن الراوي نفسه كان يعقب على بعض الجمل أحيانا بقوله: (فصارت مثلاً)،..إلى غير ذلك من الأشياء التي لولا ورود الأيام لم تدرك الحاجة .

ومن الجدير بالذكر هنا– أيضا – أن كل ما جاء في سطور البحث وصفحاته من ملاحظات على التركيب الأسلوبي لقصص الأيام ، وأسلوب الصياغة في أدب أيام العرب بصفة عامة؛ لم يكن ليتسم بسمة الإحاطة بكل ما في الأيام أو حتى بنصفه أو أقل من ذلك ، وإنما هي إشارات ربما تلفت النظر إلى ضرورة وجود اهتمام زائد من الباحثين بهذه النصوص لاستخراج ما فيها .

والحمد لله رب العالمين

عامر بن سمار الرشيدي

المراجع

٠ –الإشارات والتنبيهات في علم البلاغة – محمد بن علي الجرجاني تحقيق عبد القادر حسين ط دار نهضة مصر– القاهرة ١٩٨١م .

١ –الأعلام – خير الدين الزركلى ط دار العلم للملايين – بيروت .

٢ –الأغاني – أبو الفرج علي بن الحسين الأصفهاني ط دار الكتب العلمية بيروت.

٣ –الأمالي – أبو علي القالي، إسماعيل بن القاسم بن عيذون، ط – دار الكتب المصرية .

٤ –الإيضاح في علوم البلاغة – الخطيب القزويني (جلال الدين أبو عبد الله محمد بن قاضي القضاة سعد الدين أبي محمد عبد الرحمن القزويني) ط دار الجيل– بيروت د–ت .

٥ –أيام العرب في الجاهلية – محمد أحمد جاد المولى ، علي محمد البجاوى، محمد أبو الفضل إبراهيم– ط– المكتبة العصرية –بيروت .

٦ – التبيان في المعاني والبيان – شرف الدين الطيبي تحقيق عبد الحميد هنداوي د.ت

٧ –تداخل الأنواع في القصة المصرية القصيرة)– خيري دومة صـ ٢٥٢ ط الهيئة العامة للكتاب ١٩٩٨ .

٨ –تفسير الأحلام – سيجموند فرويد، ترجمة مصطفى صفوان ن د–ت .

٠٥- تفسير الكشاف – أبو القاسم محمود بن عمر الزمخشري، ط- مصطفى البابي الحلبي – القاهرة ١٩٦٦ .

٠٠- الحبكة والعقدة المعنى والنوع والخصائص – يوسف حطيني ، د – ت .

٠١- دراسات في الرواية والقصة القصيرة – يوسف الشاروني ، ط- مكتبة الأنجلو المصرية ، القاهرة ١٩٦٧ .

٠٢- دلائل الإعجاز- عبد القاهر الجرجاني تحقيق محمود محمد شاكر ط الخانجي ط٢ القاهرة ١٩٨٩ .

٠٣- الطراز المتضمن لأسرار البلاغة وعلوم وحقائق الإعجاز- يحيى بن حمزة العلوي مراجعة وتدقيق محمد عبد السلام شاهين ط دار الكتب العلمية بيروت ط ١عام ١٩٩٥م .

٠٤- العقد الفريد – أحمد بن محمد بن عبدربه الأندلسي ، ط – دار الفكر- بيروت.

٠٥- علم البيان بين النظريات والأصول – ديزيرة سقال ط دار الفكر العربي – بيروت ١٩٩٧ .

٠٦- علم البيان دراسة تحليلية لمسائل البيان – بسيوني عبد الفتاح فيود ط٣ ط مؤسسة المختار للنشر والتوزيع –القاهرة ٢٠١٣م .

٠٧- علم البيان – مختار عطية ط دار الوفاء الإسكندرية ٢٠٠٤م .

٠٨- فن القصة القصيرة – رشاد رشدي ، ط- القاهرة ١٩٥٧ .

١- فن القصة القصيرة في أدبنا الحديث – عبد الحميد يونس ، ط – دار المعارف –مصر١٩٧٣ .

١٠- القصة القصيرة في مصر دراسة في تأصيل فن أدبي – شكري محمد عياد، ط – جامعة الدول العربية ، القاهرة ١٩٦٨ .

١١- الكامل في التاريخ - أبو الحسن علي بن أبي الكرم محمد بن محمد بن عبد الكريم المعروف بابن الأثير الجزري، ط دار الكتاب العربي – لبنان .

١٢- لسان العرب – جمال الدين بن منظور الإفريقي ،ط – دار المعارف – مصر .

١٣- مجلة رابطة العالم الإسلامي – عدد ٢٨ صادر في ٢٠١٣/٦/١٧ .

١٤- مجمع الأمثال – أبو الفضل أحمد بن محمد بن إبراهيم الميداني، تحقيق محمد محي الدين عبد الحميد، ط – دار المعرفة لبنان ٢٠٠٥ .

١٥- المستطرف في كل فن مستظرف – شهاب الدين محمد بن أحمد الإبشيهي ط دار مكتبة الحياة – بيروت عام ١٩٨٦ .

١٦- معجم البلدان - شهاب الدين أبو عبد الله ياقوت بن عبد الله الحموي، ط- دار صادر – بيروت ١٩٩٣ .

١٧- معضلة مفهوم الحداثة من منظور مقارن – جهاد عودة – الناشر المكتب العربي للمعارف .

١٨- المعنى في البلاغة العربية – حسن طبل ط دار الفكر العربي- القاهرة ١٩٩٨م .

٢٠- النقد الأدبي الحديث – محمد غنيمي هلال ، ط بيروت ١٩٧٣.

٢١- نقائض جرير والفرزدق – أبو عبيدة معمر بن المثنى البصري ، وضع حواشيه خليل عمران المنصور ،ط – دار الكتب العلمية – بيروت ١٩٩٨ .